الفصل الرابع
أسئلة تبحث عن إجابات

- لماذا نُصّر على أن نرى فى أوروبا ما ليس فيها؟
- الإعلام العربى .. إلى أين؟
- لعنة برشلونة هل تصيب الاتحاد من أجل المتوسط؟
- مؤامرة دولية لتسييل القضية الفلسطينية.

obeikandl.com

obeikandl.com

• لماذا نُصّر على أن نرى فى "أوربا" ما ليس فيها؟!

.. فى ظنى أن "انزعاجنا" من تقرير البرلمان الأوروبى الخاص بحقوق الإنسان فى مصر يرجع –فى جانب كبير منه– إلى أنه جاءنا من أوروبا التى نعتبرها (صديقة) تربطنا بها "دوائر" جوار، وثقافة، وحضارة متوسطية أسرف كُتاب كثيرون فى الحديث عنها فيما يعرف بجوار الضفتين: شمال المتوسط وجنوبه.

ومع يقينى الكامل بأن السياسة بين الدول لا تعرف صداقات ولا عداوات وإنما مصالح، إلا أن السؤال الذى يفرض نفسه حاليا هو التالى: هل أوربا صديقة لنا فعلاً؟ وهل تراعى دولها، وأجهزتها الاتحادية (مثل المفوضية الأوروبية، والبرلمان الأوروبى) هذه الصداقة وتعمل لها ألف حساب إذا ما نظرت فى أمر يتعلق بنا؟..

الإجابة هى: لا وألف لا، والأمثلة على ذلك عديدة ولنبدأ من الواقعة الأخيرة: فالبرلمان الأوروبى لم يتردد لحظة واحدة فى إصدار قرار يدين فيه ما أسماه بانتهاكات حقوق الإنسان فى مصر! وقبل نحو عامين رفض إصدار قرار يدين الدنمارك بسبب الرسوم الدنامركية التى تسيء إلى الرسول الكريم. واكتفت أوروبا –فى ذلك الوقت– بإرسال مبعوثها السياسى خافيير سولانا لكى يهدئ من روع بعض الدول الإسلامية والتى كانت قد أعربت عن قلقها بسبب الأزمة التى فجرتها هذه الرسوم المشئومة.. والأغرب أن رئيس المفوضية، الأوروبية أعلن –فى تحد– أنه لن يطلب وقف نشر هذه الرسوم انتصاراً لحرية الرأى خالطاً –مع سبق الإصرار والترصد– بين احترام المقدسات الدينية، وحرية التعبير!!.

وفى اعتقادى أن هذا الموقف الأوروبى لا يعكس –لا من قريب ولا من بعيد– أن هناك صداقة من نوع ما بين أوروبا والعرب..

أما المثال الثانى فتحفظه الذاكرة العربية لأنه يتعلق بإسرائيل التى تتنافس أوروبا وأمريكا فى تدليلها وخطب ودها.. فلقد خرج علينا استطلاع رأى تقول نتيجته أن ٥٩٪ من الأوروبيين يرون أن إسرائيل تمثل تهديداً للسلام فى العالم لأنها تمارس

"إرهاب الدولة" بامتياز ولا تتوقف عن ممارسة سياسات القمع والتجويع والاستيطان التوسع وتدمير البنى التحتية وممتلكات الفلسطينيين دون أن يردعها قانون دولى أو قرار "أممى" أو توسلات ودموع الثكالى والأرامل والأطفال!

وكلنا يذكر أن إسرائيل أقامت الدنيا ولم تقعدها، واتهمت أوروبا "بالتواطؤ" وذكرتها بالهولوكست والمحارق التى أقامتها لإبادة اليهود.. والمفاجأة أن أوروبا انتفضت وبادرت بنفس صلتها بهذا "الاستطلاع" وأصدرت بيانا ممهوراً بإمضاء الاتحاد الأوروبى تتبرأ فيه –جهاراً نهاراً– من هذه النتيجة، كما تحدث مصدر باسم المفوضية الأوروبية مؤكداً أن الاتحاد الأوروبى لا يعطى أهمية من أى نوع لنتائج مثل هذه الاستطلاعات ولا تأثير لها فى صنع سياساته.

وحرص المبعوث الأوروبى للشرق الأوسط على أن يبدى امتعاضه من استطلاع الرأى وقال: إن هذه الأرقام تزعجنا كثيراً، لكنها على كل حال لا تعكس رأى القادة الأوروبيين! وكان علينا –نحن العرب– أن نبادر بالتعاطى مع هذه النتيجة إيجابيا عبر مؤسسات المجتمع المدنى فى بلادنا المترامية من المحيط إلى الخليج –لكن شيئاً من هذا لم يحدث، مما أشعر الأوربيين أنهم يتعاطفون مع شعوب تحولت إلى جثث هامدة أو على الأقل تبلدت مشاعرها ففقدت حاسة التمييز بين ما يسرها، وما يضرها...

والمؤسف أننا ظللنا –فى المنطقة العربية– نتوهم أن أوروبا صديقة وقريبة، وأليفة فكان حالنا كالأطفال الصغار الذين يرددون أغنية رديئة وبلا معان أو دلالات، وعذرهم أنهم حفظوها قديما ولم يعد فى وسعهم نسيانها.. أقول ذلك وفى ذهنى وقائع كثيرة تكشف أننا وحدنا فى جنوب المتوسط الذين نتحدث عن صداقة لا وجود لها.. فمثلاً لقد ملأنا الدنيا ضجيجا بالمشاركة مع أوروبا، وآفاق التعاون الأورومتوسطى.. وفى مناسبة الاحتفال فى عام ٢٠٠٥ بمرور عشر سنوات على اتفاقية برشلونة تبين للقاصى والدانى أن الاستثمارات التى حصلت عليها الدول

المشاطئة للبحر المتوسط جنوباً لم تزد عن ١٪ من إجمالى الاستثمارات وهى ٩٪ والعجيب أن إسرائيل -وحدها- قد استحوذت على نحو ٤٥٪ من هذه النسبة الضئيلة.. وقيل فى ذلك الوقت أن إجمالى ما قدمته أوروبا إلى دول جنوب المتوسط فى السنوات العشر من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٥ يوازى فقط إجمالى ما حصلت عليه دولة واحدة من دول شرق أوروبا (وهى بولندا)!

.. وهذا معناه أننا لا نشغل إلا مساحة هامشية فى اهتمامات أوروبا بدول العالم، فهذه الأرقام هى أرقام مخجلة بكل المقاييس، ولا يمكن أن تعكس (صداقة) من أى نوع، والغريب أننا نصّر على أن نرى فى أوروبا ما ليس فيها.. فإسرائيل هى الأقرب إلى قلب قادة أوروبا، وهن يراعون صداقتهم منها فى كل الظروف.. ويحرص كل زعيم أوروبى أن يؤكد هذه الصداقة فى مناسبات عديدة.. فالرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى -مثلا- وفور فوزه فى الانتخابات الرئاسية أعلن أمام الجميع "أن صداقته لإسرائيل لا تقبل مزايدة".. أما الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فبدأ جولته الشرق أوسطية بالمحطة الإسرائيلية، ولبس القلنسوة اليهودية وزار المعابد وحائط المبكى، ومتحف الهولوكست، وبكى مع الباكين من قبيل المشاركة الوجدانية وشدد على يهودية الدولة العبرية، وأعطى أولمرت الضوء الأخضر لسحق عظام الفلسطينيين فى غزة...

.. ووقفت أمريكا وفرنسا وبريطانيا وراء المماطلة المتعمدة لإرجاء اجتماع مجلس الأمن حدث ذلك إبان حرب إسرائيل على لبنان فى صيف ٢٠٠٦ لإعطاء مزيد من الوقت لكى تسحق دبابات إسرائيل عظام جنود حزب الله، والمقاومة فى جنوب لبنان.. وهو ما لم يحدث. ويحدث ذلك اليوم لعرقلة إصدار قرار يدين إسرائيل على انتهاكها لحقوق الإنسان فى غزة..

.. أقول يحدث ذلك قديما وحديثا، ويعكس -بحق- صداقة، وتواطؤ من نوع حميم بين أوروبا (التى تشغل ثلاث دول منها مواقع دائمة فى مجلس الأمن) وبين

إسرائيل، ولم يحدث قط مع العرب... ورغم ذلك يسرف كثيرا وطويلاً فى الحديث عن أوروبا الصديقة، والغربية والأليفة...

.. وهناك براهين أخرى تؤكد أن أوروبا لا تختلف كثيرا عن أمريكا، فهم يقفون فى خندق واحد، وينظرون إلينا نفس النظرة، فنحن - على أكثر تقدير - من وجهة نظرهم - قوم طيبون، ساذجون نفرح بالكلام المعسول، فأغرقونا به وكان هذا هو كل نصيبنا من الشراكة مع الأوربيين..

ويحضرنى مثال آخر يؤكد ذلك، فقبل نحو ثلاث سنوات أصدر البرلمان الأوربى قرارا بتجميد نحو ١٨.٧ مليون يورو كانت مخصصة للفلسطينيين وجاء فى حيثيات المنع أمران: الأول أن الفساد ينخر فى عظام السلطة الفلسطينية ومن ثم لا يمكن ائتمانها على هذه الأموال. والثانى أن هذه الأموال سوف تذهب إلى جيوب الإرهابيين (يقصدون رجال المقاومة الفلسطينية)..

المثال الآخر وهو الأخطر عندما صدر قرار يدرج الجناح السياسى لحماس ضمن المنظمات الإرهابية! وهو الأخطر لأنه أطلق يد الحكومات الإسرائيلية (منذ صدوره وحتى اليوم) لتقتل، وتقاتل، وتسفك دماء الأبرياء..

ويذكر الجميع أن شارون (رئيس الحكومة فى ذلك الوقت) تحدث عن هذا الغطاء الأوروبى الذى يعطى له الحق فى أن يفعل ما يشاء فى أرض وسماء فلسطين المحتلة..

وعلى سبيل التذكرة، لا يجب أن ننسى أن الجانب العربى عندما طلب من أوروبا أن تدعم قرار محكمة العدل الدولية والخاص بالجدار العنصرى، تململ الأوروبيون وفروا من الاجتماع فى جنيف كالجرذان الخائفة..

واليوم تتحدث فرنسا عن ٧.٣ مليار دولار تم تخصيصهم فى مؤتمر المانحين فى باريس للسلطة الفلسطينية، لم يصل منهم مليار واحد حتى الآن.. وجاءت التعقيدات التى تلت مؤتمر أنابوليس لتجعل هذا الرقم أضغاث أحلام..

.. ومع استشعار أوروبا بأن التعاون الأورومتوسطى لن يقدر له السير بالسرعة المطلوبة بسبب الصراع العربى – الإسرائيلى اتجهت إلى الحديث عن تعاون جزئى بديل أطلقت عليه تعاون ٥+٥ ويضم خمس دول فى شمال المتوسط فى مقابل خمس دول فى جنوب المتوسط.. وأخيراً خرج علينا الرئيس الفرنسى ساركوزى بمشروعه الخاص بالاتحاد المتوسطى..

- ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن أوروبا سواء دولها فرادى أو عبر مؤسساتها الاتحادية قد اختارت الاصطفاف إلى جانب الولايات المتحدة. وتماهت سياستها الخارجية (أو كادت) ضمن السياسة الخارجية الأمريكية، ولم تعد ثمة فروق تمييزية بينهما.. والمعروف أن اللوبى اليهودى فى أمريكا وأوروبا هو الذى يحرك هذه السياسة، فهو كان وراء تعليق ١٠٠ مليون دولار فى المساعدات الأمريكية لمصر، وكان –أيضا– وراء إصدار قرار البرلمان الأوروبى الخاص بحقوق الإنسان فى مصر..

.. ورغم أننا نعلم ذلك فلم نحرك ساكنا، وظللنا نردد أنشودة أن أوروبا صديقة لنا مع أنها ليست كذلك، وكعادتنا لا نتحرك إلا فى اللحظة الأخيرة ومن ثم لا تخلو ردود أفعالنا من انفعال وعاطفية وعدم نضج.

الإعلام العربي.. إلى أين؟

يتردد أن تركيا رصدت مئات الملايين، وأعدت كل الدراسات لبث قناة تليفزيونية ناطقة باللغة العربية، يكون هدفها مخاطبة العرب من المحيط إلى الخليج بكل ما يدور في رؤوس صناع سياستها الخارجية.

وضمن هذه الرؤية التركية هناك من يؤكد أن الطموح العثماني الجديد (ورغبة قادة تركيا اليوم في العودة إلى ربط أنقرة بجذورها الإسلامية) هو الدافع الأول وراء إنشاء هذه القناة التليفزيونية.

والحق أن ما يعنيني ليس مناقشة أهداف تركيا ومحاولة عودتها إلى الجذور، وربما صرف النظر عن فكرة اللحاق بأوروبا والاتحاد الأوروبي، فلهذا الأمر – مع أهميته القصوى – سياق آخر.. ولكن ما يعنيني هو أن يصبح الفضاء العربي مستباحا من التليفزيون التركي، وقبلة التليفزيون الأمريكي والفرنسي والألماني، والإيطالي أقول ذلك وفي ذهني قناة الحرة الأمريكية التي انطلقت مع إدارة جورج دبليو بوش السابقة لتبشر العرب بالجنة الديموقراطية المفقودة، وكذلك قناة "فرنسا ٢٤" التي تعتبر لسان حال الجمهورية الفرنسية في المنطقة العربية، وفي الإطار نفسه هناك حديث متواصل عن قناة يابانية وأخرى إيطالية وثالثة ألمانية ورابعة إسبانية.

كل ذلك يحدث من حولنا ويستهدفنا – عيانا جهارا ونحن جلوس – وكأن على رؤوسنا الطير، لا نتحرك ولا نكاد ننطق ببنت شفة.. مؤلم هذا الذي يحدث، فأجواؤنا – أصبحت – بلغة العسكريين تحت مرمى البث الإعلامي الدولي!.. ومع يقيني الكامل بأن استهداف المنطقة العربية إعلاميا يعكس أهميتها الجيوبوليتيكية والاستراتيجية للعالم، لكن هذا لا يبرر على الإطلاق أن نظل – إزاء هذه الظاهرة- مكتوفي الأيدي لا نحرك ساكنا.

صحيح أن اتحاد الصحفيين العرب – وتحديدا في زمن الراحل صلاح الدين حافظ – قد نجح في أن يصد هذا الهجوم وخصوصا القادم من إسرائيل، فرصد

المدسوسات الإسرائيلية التي تملأ خطابنا الإعلامي العربي، ووضع بالفعل قائمة تضم المصطلحات الإسرائيلية جنبا إلى جنب مع قائمة بالمصطلحات العربية الصحيحة، وحث جموع الصحفيين على تنقية الخطاب الإعلامي من المصطلحات "المؤسرلة!"، والإنصاف يقضي بالقول إن حرب المصطلحات لم يحقق فيها الإعلام العربي إلا فوزا محدودا، إذ لا نزال لا نجد فروقا كبيرة بين ما تنشره الصحافة العربية وما تنشره الصحف العبرية الكبرى مثل معاريف، وها آرتس، ويديعوت أحرونوت!

.. والحق أن هذه المعركة الشرسة التي يجد الإعلام العربي نفسه طرفا فيها لاتزال تتوالى فصولها وأشكالها أمامنا (صباحا ومساء) دون أن نحرز فيها تقدما واحدا، بل لا نكاد ندرك خطورتها إلا بعد فوات الأوان!

فقناة "فرنسا ٢٤" لا هم لها سوى أن تكرس في عقولنا مبادئ لا تمت للسياسة الفرنسية اليوم بصلة مثل مبادئ حرية،إخاء،مساواة ثم لا تألو جهدا في تبرير سلوكيات التيار الساركوزي في السياسة الفرنسية الذي يتأسس على مبدأ البراجماتية والشعور بالحنين لعودة فرنسا إلى أحلامها الإمبراطورية السابقة.

والشيء نفسه لا يختلف كثيرا مع تليفزيون روسيا اليوم، وهو تليفزيون روسي ناطق باللغة العربية ويرمي إلى خطف مساحة من العقل العربي لحساب أفكار روسية هي، في الواقع العملي، امتداد لأفكار الاتحاد السوفيتي السابق وتبقى بالدرجة الأولى إعطاء السياسة الدولية بطاقة (إقامة) في الفضاء السياسي العربي.

مرة أخرى يبدو المشهد حزينا لأن كل هذه الفضائيات الأجنبية تنطق باللغة العربية لكي تكسب مساحة في عقول المشاهدين العرب، وتروج لأكاذيب وترهات برعت فيها – مثلا – قناة الحرة الأمريكية، لكن بالمقابل لا توجد منظومة إعلامية عربية موحدة لكي تقف بالمرصاد أمام هذه الهجمة التترية التي تشنها وسائل الميديا الدولية مع سبق الإصرار والترصد!

والدليل على ذلك أننا – في المنطقة العربية والإسلامية أيضا – لم نتمكن من الوصول ببعض من أفكارنا إلى العقل الغربي.. وهي أفكار لا تبغي سوى تصحيح المغالطات التي تختزنها العقول في أوروبا وأمريكا عن الإسلام مثلا.. وكلنا يذكر أن ظاهرة الإسلاموفوبيا – وتعني الخوف المرضي وغير المبرر من الدين الإسلامي- المختلف تجلياتها منذ كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي وحتى أزمة حظر بناء المآذن في سويسرا، مرورا بمقتل مروة الشربيني، وصدور كتاب اللعنة للكاتبة البنغالية تسليما نسرينن واتهام كل ما هو عربي مسلم بأنه إرهابي.. لقد فشلنا في مواجهتها إعلاميا، إذ اعتمدنا على المونولوج..أقصد الحوار الذاتي وأغلقنا الديالوج وأعني به الحوار مع الآخر.. فظل الحال يسير من سيئ إلى أسوأ، فعادت الكلمات العنصرية الشهيرة ترتسم في الأذهان، وهي أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا.

ولئن كان مبررا ألا نتقن فن الحوار والإفصاح عن الذات والدفاع عن حقوقنا المخطوفة ظلما وعدوانا، في وقت مضى فيه الإعلام لايزال أشبه بالمارد في القمقم، فاليوم وبعد أن تمدد هذا المارد وانتشر عبر المقروء والمسموع والمرئي، ووصل بأكاذيبه وادعاءاته إلى عقر دارنا، لم يعد مقبولا ولا معقولا أن يظل إعلامنا يغط في نوم عميق. لقد بات يتعين علينا أن نرد على هذه الفضائيات الأجنبية بفضائيات عربية خصوصا أن إنشاء فضائية لم يعد بالأمر العسير، والبرهان على ذلك أن رجال أعمال من الحجم الصغير وليس العملاق، يملكون قنوات وفضائيات ويسيطرون على فضاءات إعلامية كثيرة.

بكلمة أخرى: لتركيا وروسيا وفرنسا وأمريكا أن تدخل عبر بثها التليفزيوني الناطق بالعربية إلى حجرات نومنا، فلا أحد بوسعه أن يقف في وجه هذه الطفرة الإعلامية، لكن المشين هو أن ندفن رؤوسنا في الرمال وكأن الأمر لا يعنينا.

لعنة برشلونة هل تصيب الاتحاد من أجل المتوسط:

الثابت عملا أن البحر المتوسط – الثقافة والجغرافيا والديموجرافيا – يُسيل لعاب المتوسطيين شمالا وجنوبا منذ زمن.. فمثلما هناك المؤرخ الفرنسي الشهير فيرنان بروديل الذي كان أول من وضع الكلمة الأولى في إحياء هذا المشروع التكاملي الكبير، وشيخ المستشرقين جاك بيرك الذي أفشى أسرار الضفتين في كتابه "حديث الضفتين"، فهناك أيضا من أهل الجنوب: طه حسين الذي كشف عن افتتانه اللامحدود بثقافة المتوسط (وحضارته) في كتابه المثير للجدل: مستقبل الثقافة في مصر، ومحمد أركون هذا الجزائري الذي يملأ الدنيا فكراً وتكتظ مدرجات الجامعات الأوروبية عندما يحاضر أو يتحدث..

.. وقد يكون صحيحا القول إن المثقفين العرب سبقوا (حكامهم) في الحلم بالفضاء المتوسطي، بل حاولوا دفع رجال السياسة (دفعا) نحو حوض البحر المتوسط ونزع آثار الخوف من صدورهم عند التفكير في هذا البحر، وإلا فما معنى أن يقول طه حسين قولته الشهيرة التي لا تخلو من لوم وتشجيع في ذات الوقت: "لماذا يخيفنا البحر المتوسط.. كأنه ليس بحرنا.. إنه بحرنا كما هو بحرهم".. وعلى عكس الحال العربي، نجد أن هناك تنسيقا أو ما يشبه التنسيق بين المفكرين الغربيين، والعقل السياسي الأوروبي فيما يتعلق بالفضاء المتوسطي... فالمحقق أن "حالة الولع" بالبحر المتوسط التي تسكن مؤرخا كبيرا بحجم بروديل قد انتقلت إلى رجال السياسة الذين خصصوا مساحة لا يستهان بها على أجنداتهم لهذا الفضاء الذي كثيرا ما دغدغ مشاعرهم وهيج مكنون مشاعرهم وتطلعاتهم نحو الثورة والسيطرة معا..

.. والإنصاف يفرض علينا الاعتراف بأن دول الشاطئ الجنوبي للمتوسط لم تتجشم، ولو مرة واحدة، عناء طرح المبادرات، واكتفت باستقبال ما يهبط عليها من دول الشاطئ الشمالي.. وكانت البداية – كما يجب أن نذكر جميعا – مع مبادرة الحوار العربي – الأوروبي التي لم تكن بريئة بالنظر إلى دوافعها، وهي "التفاهم" مع العرب

حتى لا تتكرر واقعة استخدام النفط سلاحا في الحروب التي قد تنشب مستقبلا في المنطقة (على غرار حرب أكتوبر ١٩٧٣).. ولأن هذه المبادرة لم تراع في أهدافها سوى مصلحة دول الشمال، فكان طبيعيا أن تموت، لتخرج من رحمها مبادرة أخرى (متوسطية) ناقشتها قمة لشبونة عام ١٩٩٣ ثم تطورت عبر قمة أسن في ألمانيا لتتمخض عنها مبادرة الشراكة المتوسطية التي تقوم على عدة عناصر منها : التخوف الحقيقي من مستقبل المنطقة المتوسطية ومن آثار هذا المستقبل على الأمن الأوروبي.. وكما هو واضح، فالفكرة أوروبية محضة، والهدف أيضا أوروبي ولا وجود للمصلحة العربية في ذهن من فكر في طرح مبادرة التعاون الأورومتوسطي.. لذلك ترنح هذا المسار لعدة سنوات، وكاد يموت واقفا.. وكلنا يعرف القصص التي تلاحقت الواحد تلو الأخرى في حلوق القادة العرب الذين اكتشفوا بعد عشر سنوات من انطلاق عملية برشلونة أنهم لي يجنوا منها سوى الحنظل! وعلى صعيد الأرقام كانت الفجيعة الكبرى.. فمن بين ٩٪ استثمارات أوروبية خارجية لم تحصل دول جنوب المتوسط سوى على نسبة ١٪ فقط، والعجيب أن إسرائيل وحدها قد سطت على نحو ٤٥٪ من هذه النسبة الضئيلة، أما الموجع للقلب العربي هو أن إجمالي ما قدمته أوروبا إلى جنوب المتوسط في عشر سنوات يوازي فقط إجمالي ما حصلت عليه دولة واحدة فقط من دول شرق أوروبا (هي بولندا).. لذلك لم يكن هذا القائد العربي مبالغاً – أعنى به العقيد الليبى معمر القذافى– عندما قال ذات مرة في حسرة شديدة: لقد قرأت بنود اتفاقية الشراكة الأورومتوسطية بندا بندا، ولثلاث مرات متتالية، ثم اكتشفت أن الأوروبيين يطلبون كل شئ ولا يلتزمون في المقابل بشئ!

.. ولنقلها بصراحة، لقد كانت جملة المواقف الإسرائيلية المتعنتة والرافضة للسلام (فعلا لا قولا) هي السبب الأول وراء وفاة عملية برشلونة.. أما السبب الأخطر فهو عجز أوروبا – بقضها وقضيضها – عن مواجهة إسرائيل ودعوتها لكي تتحمل مسئوليتها.. لذلك أعلنت أوروبا (الفرار) وتركت المنطقة تئن تحت وطأة الغطرسة الإسرائيلية والخلافات مع الفلسطينيين ورفضها القاطع لإقامة دولة

فلسطينية.. واستحدثت مشروعا آخر هو (٥+٥) بين دول غرب أوروبا المشاطئة للمتوسط مع دول اتحاد المغرب العربي.. وحاولت إحياء هذا الشكل الجزئي للتعاون في المغرب الأقصى هربا من أتون المواجهة في الشرق الأوسط.. وكانت أيضا تحدثت عن صيغة أخرى للتعاون تحت مسمى (سياسة الجوار)، لكنها باءت جميعا بالفشل أو بالأحرى لم تحقق ما كانت تصبو إليه، لذلك بدا المشهد في العلاقات الأورومتوسطية وكأنه شجرة تيبست تماما وسقطت أوراقها، ولم يعد يرجى منها نفع (ظلا أو ثمراً).. ثم تفيق دول الجنوب -كعادتها- على وقع مبادرة أخرى صاحبها هذه المرة هو الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي الذي لم يعدم اللباقة اللفظية، والمهارة السياسية، فقام بترويج مبادرته بعد أن ألبسها ثيابا مزركشة تسحر العقول، وتجذب الأنظار.. وتحدث عن تعاون إقليمي علمي وبيئي وبحثي وأمني، لكنه لم يتوقف لحظة واحدة أمام الصراع العربي - الإسرائيلي.. وقد يكون العكس هو الصحيح لأنه في الوقت الذي كان يزج ساركوزي بإسرائيل داخل هذا الفضاء، ويفسح لها المجال لتحتل موقع أمين عام مساعد الاتحاد من أجل المتوسط، كانت دوائر بروكسل تحث الخطى باتجاه ترفيع مستوى العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل والاتحاد الأوروبي.. بحيث يصبح لها ذات الحقوق التي يتمتع بها الأعضاء الـ٢٧ في الاتحاد .. وهكذا توافر لإسرائيل أن تحصل على "الحُسنيين" وأن تقوم - في دائرة الاتحاد من أجل المتوسط - بإعداد مؤتمرات القمة، ووضع البرامج التعاونية في الإقليم ورسم السياسات الأمنية الخاصة بالمياه، والطاقة، والتسليح.. ولا ننس أنه في إطار صيغة ثنائية الرئاسة لهذا الاتحاد، والتي يكون طرفاها عضوا من الاتحاد وعضوا من خارجه، ستترأس إسرائيل هذا الاتحاد ذات مرة وهو ما يعنى أنها ستضع صيغة جديدة من العلاقة مع الدول العربية لتضرب بذلك عدة مرجعيات خاصة بالسلام في منطقة الشرق الأوسط، أهمها مبادرة السلام العربية.

المحقق أن مشروع الاتحاد من أجل المتوسط الذي تحوم حوله الشبهات، والذي لم يستفد منه حتى الآن سوى إسرائيل يكاد يكون صورة مُكررة من تراجيديا عملية

برشلونة التي انتحرت حتى لا تتواجه مع إسرائيل.. وها هو الاتحاد من أجل المتوسط يجعل إسرائيل تشرب – من المكاسب – حتى الثمالة، بينما تتدلى ألسنة العرب طلبا لقطرة ماء.. دون طائل.

وإذا تذكرنا أن الرئيس ساركوزي – الأب الشرعي للاتحاد من أجل المتوسط – يعجز حتى هذه اللحظة – عن توفير المبلغ الذي سبق أن وعد به للانفاق على مشاريع الاتحاد وهو ١٤ مليار يورو (بسبب الأزمة الاقتصادية وأشياء أخرى) لأدركنا أن لعنة برشلونة سوف تلحق حتما بهذا الاتحاد الوليد..

والأهم من ذلك أن هذا المشروع يحمل في ثناياه بذور فنائه لأنه لم يستوعب دروس التاريخ التي تقول إنه لا يمكن لحضارة متوسطية جديدة أن تنهض إلا بعد تصحيح الظلم التاريخي وحل جملة المشكلات التي تملأ أرجاء الفضاء المتوسطي وعلى رأسها جميعا القضية الفلسطينية.

مؤامرة دولية لتسييل القضية الفلسطينية :

..لست على يقين من أن الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي كان يعلم أو لا يعلم أنه يُرسي قاعدة جديدة في السياسة الدولية، عندما أكد عشية فوزه في الانتخابات الرئاسية، أنه ينتمي إلى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فهو ليس ملزما بأن يرث القضايا والإشكاليات الدولية على صورتها التي عرفت بها طويلا.. بمعنى آخر إن من حقه أن يعطي اجتهادا مغايرا يعكس رؤيته الخاصة للأحداث التي يموج بها العالم من حوله، وهو –والحال هذه – لن يبالي بآراء الآخرين في خطته التي تندرج بكل تفاصيلها تحت عنوان كبير هو "القطيعة" مع كل الخطط التي كان يتحمس لها الآخرون.

أقول ثانية إن هذه القاعدة وإن جاءت على لسان الرئيس ساركوزي، إلا أنها – وحسبما يبدو من سير الأحداث في منطقة الشرق الأوسط– باتت أشبه "بالدينامو". الذي أحدث انقلابا حقيقيا في التوجهات التي تشهدها السياسات الإقليمية والدولية في منطقتنا.. فها هو مهندس الدبلوماسية الإسرائيلية (ليبرمان) يبدأ الخطوة الأولى في هذا الانقلاب، عندما تحدث –بأعلى صوت– عن أمرين، الأول هو عدم اعترافه بنتائج مؤتمر أنابوليس وما ترتب عليه من تداعيات، بدعوى أن أحداً في إسرائيل (خصوصا في الحكومة أو الكنيست) لم يوافق عليه، ورفض طرح ما يعرف بالقضايا النهائية للتسوية وهي : قضية القدس واللاجئين، والحدود، والمياه... واستبعد – بشكل قاطع ومانع – فكرة الانسحاب من الجولان.. وإذا تذكرنا أن ليبرمان وزير خارجية إسرائيل هو من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية (هو الآخر) فكأنما قاعدة ساركوزي هي التي تحكم سلوكه السياسي، بمعنى أنه (داس بقدميه) عامداً جميع مرجعيات السلام من مدريد وأوسلو.. وحتى أنابوليس، ورأى أن يفرض علينا جميعاً رؤية الصراع الذي تبدل بدوره فأصبح صراعاً فلسطينيا – إسرائيليا بعد أن كان صراعا عربيا – إسرائيليا... ومن نافلة القول أن

نشير إلى أن الطرح الذي قدمه ليبرمان بشأن القضية الفلسطينية أصبح قائما وليس بوسع أحد إنكاره أو غض الطرف عنه..

.. وهناك "ضلع" آخر لهذه الرؤية الإسرائيلية الجديدة التي تستهدف (تسييل) القضية الفلسطينية وتغيير ملامحها التي عرفت بها، وهو – ما جاء أيضا على لسان مهندس السياسة الخارجية الإسرائيلية ليبرمان – ويتعلق بإعطاء الأولوية المطلقة لحل الملف النووي الإيراني واعتبار ذلك (البوابة الصحيحة) إذا ما كنا نريد الدخول إلى القضية الفلسطينية والحديث عن حلحلة أو مفاوضات.. وهذا الطرح خطير، ويكاد يقضي تماما على تعاريج ومنحنيات الصراع الفلسطيني –الإسرائيلي، أو على الأقل تجميده ودفعه باتجاه (شرنقة) تُخفيه تماما عن الأنظار عقدا من الزمان وربما عدة عقود.. إذ كيف نعالج قضية عربية من بوابة فارسية، ناهيك عن أن للقضية الفلسطينية ملامح لا علاقة لها بملامح أزمة الملف النووي الإيراني.. والحال هنا أشبه بحال من يحدثنا عن أن السلام في سريلانكا – التي تعيش أحداثا دموية مؤسفة – يرتبط بما يحدث فوق كوكب المريخ من ظواهر وتغيرات مناخية!!

المعنى المقصود هو أن السيد ليبرمان يريد تذويب القضية الفلسطينية في محيط أوسع حدوده الأولى إيران وملفها النووي، لكن ليس هناك ما يمنع من أن تكون حدودها الأخرى في أمريكا اللاتينية أو استراليا..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن الدبلوماسية المصرية قد أدركت خطورة هذا الطرح السرطاني المدمر الذي يُرّوج له حاليا نفر قليل من قادة إسرائيل، واتهمت ليبرمان وأعوانه بعرقلة مسيرة السلام، والاستخفاف بالدبلوماسية الدولية التي أسهمت في تكريس المرجعيات المختلفة لإطلاق العملية السلمية وأقرت كل نتائجها وحذرت حكومة نيتانياهو من خطورة اللعب بالنار، وأكدت أن حل الدولتين هو الخطوة الأولى في طريق السلام بالمنطقة، وأي تنصل منه أو انقلاب عليه ستكون عواقبه غير مضمونة.

والثابت أن قاعدة ساركوزي التي بدأنا حديثنا عنها قد أحدثت زلزالا ولكن في اتجاه آخر.. وأعني بذلك ما يشير إليه عدد من الدبلوماسيين الأوروبيين (تلميحا) ويتعلق بالترويج لفكرة قبول دولتين نوويتين في المنطقة (إيران وإسرائيل).. بدعوى أن التوازن النووي الذي سيتحقق بين هاتين الدولتين (العربية والفارسية) سوف يصب في صالح دول المنطقة..

وشرح هؤلاء الدبلوماسيون وجهة نظرهم مؤكدين أن المرونة السياسية والدبلوماسية التي كانت متوافرة أمام دول العالم في زمن الحرب الباردة، وتوازن الرعب النووي بين أمريكا من ناحية والاتحاد السوفيتي من ناحية أخرى، سيتوافر مجددا أمام دول منطقة الشرق الأوسط والدول الخليجية التي سيكون بمقدورها - والحال هذه - أن تحصل على الممكن - أقصى الممكن - في ظل التوازن النووي بين إسرائيل وإيران.. ويدفعون بحجة أن امتلاك إسرائيل - وحدها - نحو ٢٠٠ رأس نووي دون معادل موضوعي آخر هو الكارثة بعينها..

والحق أن هذا الطرح الأوروبي لا يخلو من خبث، لأنه يتنكر لمطالب مصر والمنطقة بأن تكون منطقة الشرق الأوسط خالية من جميع وسائل التسلح النووي.. وها هم الأوربيون يسعون لاقناعنا بالمبدأ أولا، وهو أن تكتظ المنطقة بفئة من وآليات التسلح النووي، وثانيا بأن تكون رقابنا تحت سيفين (يهودي وفارسي) وليس سيفا واحدا..

ولأن الجعبة الأوروبية لا تخلو من مفاجآت وأفكار ليست بريئة من شبهة التواطؤ مع إسرائيل، فلقد انطلق نفر من الدبلوماسيين الأوروبيين يروجون لفكرة التخلي عن مبدأ قيام دولتين (دولة يهودية إلى جانب الدولة الفلسطينية) في مقابل أن تلتزم إسرائيل (والمجتمع الدولي) بتحسين أوضاع الفلسطينيين المعيشية سواء في غزة أو الضفة الغربية.. وتوفير فرص عمل مضمونة تحفظ للعمال الفلسطينيين كرامتهم، ومدارس ومستشفيات وبنى تحتية تجعل الفلسطينيين لا يشعرون (بالدونية) مع ما يرونه من سبل العيش والرفاهية في مستوطنات اليهود..

.. الثابت أن بعض الدوائر الأوروبية تنشر هذه الفكرة دون حياء من منطلق أن منطقة الشرق الأوسط في حاجة إلى الدخول في مرحلة استرخاء بعد طول قلق وتوتر واضطراب، لاسيما أن المقارنة بين الطرفين: إسرائيل من ناحية، والفلسطينيين من ناحية أخرى تكون دائما لصالح إسرائيل، القوية والغنية والمسلحة تسليحا حديثا، بينما الفلسطينيون ضعاف ومشتتون وليس لديهم حتى الآن دولة (ولن تكون!!) وخلافاتهم البينية لا تنتهي..

يبقى أخيرا أن نذكر أن هذه الأفكار التي تملأ السماء العربية كالدخان لا يمكن التعامل معها وكأنها تجمعت من جميع الاتجاهات بطريق المصادفة، فلا شيء في السياسة يأتي مصادفة.. والأهم هو أن نعلم يقينا أن الأوضاع التي اعتدناها في المنطقة، ومفردات القضايا والأزمات الموجودة طوال الوقت على (الطاولة) سوف يعتريها كثير من التغيير والتبديل في المرحلة المقبلة.

المؤسف أن إخواننا الفلسطينيين لم يدركوا بعد هذا المخطط الذي يستهدف طمس ملامح قضيتهم وحسبهم أنهم غارقون في خلافات عنقودية لا تنتهي بحثا عن مكتسبات وامتيازات فردية..